بنية الفضاء في رحلة " زيارة إلى خنقة سيدي ناجي لأبي القاسم سعد الله"

The Structure of Space in the Journey “Visit to khankat Sidi Naji by Abu Al-Qasim Saadallah”

ط.د نور الدين مخفي[1]*، د. امحمد سحواج[2]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، (الجزائر)، مخبر تعليميّة اللّغات وتحليل الخطاب

n.mokhfi@univ-chlef.dz

[2] جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، (الجزائر)، مخبر تعليميّة اللّغات وتحليل الخطاب

m.sahouadj@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2022-07-31 تاريخ القبول: 2023-01-13 تاريخ النشر:2023-06-08

ملخص البحث

يُعدُّ أدب الرّحلة من الفنون الأدبية القديمة في الأدب العربي، وهو لون من الألوان السّردية، ينقل فيه الرّحالة ما شاهده وما سمعه أثناء قيامه بالتّنقّل من مكان لآخر، إذ يعتمد في الغالب_ الرّحالة_ على آلية وصف المشاهد والأمكنة التي تقع عليها عينه، ولعلَّ الفضاء (المكان، الحيّز) أكثر ما يصادفه الرّحالة في تنقّلاته.

وعليه تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على بنية الفضاء في رحلة " زيارة إلى خنقة سيدي ناجي للرحالة أبي القاسم سعد الله، هذه الرحلة التي سجّلها في كتابه تجارب في الأدب والرّحلة.

كلمات مفتاحية: أبو القاسم سعد الله؛ أدب الرحلة؛ الفضاء؛.

---

* **المؤلف المرسل: نورالدين محفي**

Abstract:

Travel literature is one of the ancient literary arts in Arabic literature, It is one of the narrative colors, In it the traveler conveys what he saw and heard while moving from one place to another, It mostly depends - the traveler - on the mechanism of describing the scenes and places in which they are located, Perhaps space (place, space) that travelers encounter most in their movements.

Accordingly, this study aims to identify the structure of space in the journey of "A Visit to Sidi Naji Strangulation by the traveler Abi Al-Qassem Saadallah, this journey which he recorded in his book Experiences in Literature and the Journey."

Keywords: Abu al-Qasim Saad Allah; travel literature; space;.

1 مقدمة:

عرف العرب أدب الرّحلة منذ القدم، حيث تركوا فيه آثاراً خالدة، وأصبحت الرّحلة فنّاً من الفنون الأدبية الشّائعة في مختلف بلدان العالم، ويقتضي التّأليف في هذا النوع من الأدب ثقافة واسعة تشمل معارف وعلوم متعلّقة بالتّاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، والأدب، كما تفرض آليات الكتابة الرّحْلية جمال الأسلوب ودقّة الوصف، هذا ليتمكّن الرّحالة من وصف وسرد كلّ ما يصادفه أثناء رحلة (كالفضاء والعادات والتّقاليد والأخلاق ...إلخ.

وباعتبار أنَّ الفضاء يشكّل لبنة أساسية في أدب الرّحلات، وأنَّ الفضاء هو مسرح الاحداث في جلّ النّصوص السّردية بما فيها النّص الرّحلي، كانت الغاية من هذه الورقة البحثية هو الوقوف على بنية الفضاء في رحلة أبي القاسم سعد الله إلى خنقة سيدي ناجي الموسومة بـ "زيارة إلى خنقة سيدي ناجي".

2 التّعريف بالرّحالة أبي القاسم سعد الله:

1.2 حياته (المولد والنّشأة):

ولد الرحّالة أبو القاسم سعد الله سنة 1930م، إذ يقول عن مولده " أنا من مواليد حولي سنة 1930، وأقول حوالي لأنّه آنذاك لم يكن هناك ما يعرف حاليا بالنقمة أو النكوة، لذلك فهم قدّروا عمري تقديراً، ولدت ببلدية قمار بوادي سوف، وبالضّبط بضاحية تسمّى البدوع"[1]

وعن اسمه الحقيقي فيقول سعد الله: « اسمي فهو بلقاسم (إضافة نقطة فوق القاف). أمّا أبو القاسم فكنت أنا من استعمله مع الأدبيات، وأحياناً ظهرت مع بعض مؤلفاتي أو مقالاتي القديمة تسمية "القماري" نسبة إلى قمار.»[2]

نشأ سعد الله محكوماً بالحتمية الجغرافية، والزّمنية، والسياسية التي أثّرت على نشأته وتكوينه العلمي، فقد نشأ في "عائلة فقيرة جدّا، وبسيطة ومتديّنة، تحاول العيش بوسائلها على الفلاحة"[3]، وقد تربّى في ظروف قاسية ككلّ الجزائريين أثناء الاستعمار الفِرنسي، يَذكُر أنّه عندما حلّت الحرب العالميّة الثّانية كانت هناك خَصاصة في المئونة والمواد الغذائيّة، "أتذكّر مثلاً أنَّ النّاس عندما كانوا يتنازعون على أوراق النّباتات الجافّة عوض نبتة الشاي، وكأنّي بهم يتخيلونها شاياً، وكنّا نأكل في اليوم تمرات معدودات، لكل واحد منّا خمس حبات، حتّى لا نموت جوعاً"[4]

2.2 ثقافته وتعليمه:

لقد نشأ أبو القاسم سعد الله في عائلة متديّنة، فبعد خمس سنوات تقريباً من ميلاده أدخله أهله الجامع القبلي بالبدوع، حيث يعتبر تحفيظ القرآن للأطفال من تقاليد الثّقافة الإسلامية السّائدة في وادي سوف، يقتضي بأن يدخل الولد الجامع حتّى يحفظ شيء من القرآن الكريم، قبل أن يحتاجه أهله في الحياة العملية حتّى يستقيم لسانه ويشرب حبّ القرآن في قلبه"[5]

سافر سعد الله إلى الزيتونة بتونس سنة 1947م مع مجموعة من الطلبة بتشجيع من والديه، حيث يقول:« وقد تحقق هذا سنة 1947 حين سافرت رفقة مجموعة من الطلبة الذين سبقوني، وهذا تماشياً وتأثير التّيار الإصلاحي والتّعليمي الذي ظهر وتغلغل في منطقة سوف آنذاك.[6]

مكث في جامع الزيتونة بين 1947 و 1954، وتحصّل على الشهادة الأهلية سنة 1951، وفي نوفمبر 1954 تحصّل على شهادة التّحصيل، وهذه الشّهادة تعادل الثانوية حسب النّظام التونسي في ذلك الوقت[7].

عاد إلى الجزائر سنة 1954 ليِمن مصاريف السّفر إلى المشرق لإكمال الدّراسة، حيث عمل بمدرسة الثبات بالحراش ثم التهذيب بالعاصمة سنة 1955، وفي السّنة نفسها سافر إلى مصر بعد الصعوبات التي تلقاها جرّاء المضايقات التي كان الاستعمار الفرنسي يخلقها للمسافرين، فذهب إلى تونس ثم إلى ليبيا وصولا إلى مصر.[8]

تخرَّج بشهادة الليسانس في كلية اللّغة والعلوم بمصر سنة 1959[9]، سجّل بمكانين مختلفين لمواصلة دراسة الماجستير، الأول هو كليّة دار العلوم نفسها، تخصص أدب، فأنهى الدّبلوم في صائفة 1960، لكنّه لم يناقش الرّسالة بحكم أن القانون لا يسمح بمناقشة الرّسالة في السّنة الأولى، أمّا الجهة الثّانية التي سجّل فيها فهي معهد البحوث والدّراسات العربية التّابع لجامعة الدّول العربية، وسجّل في الشّعبة الأدبية والنّقديّة ولم يكمل الامتحانات في هذه الشّعبة، حيث سافر إلى تونس[10]، ومنها سافر إلى أمريكا بعد حصوله على منحة دراسية في 30 نوفمبر 1960،[11]

حصل من جامعة منيسوتا (أمريكا) على الماجستير والدّكتوراه في التّاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، وبين 1965- 1967 درّس بجامعة أوكلير، ولاية ويسكنسن، وفي 1967 التحق بجامعة الجزائر، وفي سنة 1993 حصل على منحة فولبرايت، فبقي فيها ثلاث سنوات أتمم فيها تحرير(الريخ الجزائر الثّقافي)، ودرس بجامعة آل البيت بالأدرن بين 1996- 2002، وخلال هذه الرّحلة العلمية تعلّم أبو القاسم سعد الله عدّة لغات[12].

3.2 بعض أعمال سعد الله:

1.3.2 المؤلفات[13]

- موسوعة: تاريخ الجزائر الثقافي (9 مجلدات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (5 أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993-1996-2004.
- الحركة الوطنية الجزائرية (4 أجزاء)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1969-1992-1997.
- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط1، مصر، 1970، ط3، الجزائر، 1982.
- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.
- الزمن الأخضر، ديوان سعد الله، الجزائر، 1985.
- سعفة خضراء، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1986.
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث, دار الآداب، بيروت، 1966.
- تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1982.

- منطلقات فكرية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس. ليبيا، 1982.
- أفكار جامحة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.
- قضايا شائكة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
- في الجدل الثقافي، دار المعارف، تونس، 1993.
- هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر، 1993.
- "شاعر الجزائر: محمد العيد، ط. 3، 1984."[14]

2.3.2 التحقيق[15]

- حكاية العشاق في الحب والاشتياق، الأمير مصطفى بن إبراهيم باشا، الجزائر، 1982.
- رحلة ابن حمادوش الجزائري، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، الجزائر، 1982.
- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، عبد الكريم الفكون، عمار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
- مختارات من الشعر العربي، جمع المفتي أحمد بن عمار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2 ،1991.
- تاريخ العدواني، محمد بن عمر العدواني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- رسالة الغريب إلى الحبيب، تأليف أحمد بن أبي عصيدة البجائي، دار الغرب الإسلامي، 1991.
- أعيان من المشارقة والمغاربة (تاريخ عبد الحميد بك)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

3.3.2 الترجمة[16]

- شعوب وقوميات، الجزائر، 1958
- الجزائر وأوروبا، جون ب. وولف، الجزائر، 1986
- حياة الأمير عبد القادر، شارل هنري تشرشل، الجزائر-تونس، 1982

وفاته: توفي أبو القاسم سعد الله رحمة الله عليه " يوم 14 ديسمبر 2013 بالمستشفى العسكري حيث كان يتلقى العلاج"[17]

3 الرّحلة بين اللّغة والاصطلاح:

1.3 لغة:

جاء في لسان العرب في مادة (ر ح ل): " التَّرْحِيلُ والإِرْحالُ بمعنى الإِشْخاصِ وَ الإِزْعاجِ. يُقالُ: رَحَلَ الرَّجُلُ إذا سارَ، و أَرْحَلْتُهُ أنا. ورَجُلٌ رَحُولٌ وقَوْمٌ رُحَّلٌ أي يَرْتَحِلُونَ كثيراً."[18]

وتقريباً المعنى نفسه نجده في المعجم الوسيط "الرِّحلة: الارتحال. (ج) رِحَل. وفي التّنزيل العزيز: (رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ). كتاب يصف فيه الرَّحالَةُ ما رأى."[19]

وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي " ارتحلَ البّعيرُ: سارَ ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كَتَرَحَّلُوا والاسم: الرِّحلة والرِّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال؛ وبالضم الوجهة الذي تَقْصِد، والسفرة الواحدة."[20]

وفي مختار الصّحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي: "(رَحَلَ) فُلانٌ و(ارتَحَلَ) و (تَرَحْلَ) بمعنًى والسم (الرَّحِيلُ. (والرِّحْلَةُ) بالكَسْرِ الارتِحَالُ يُقالُ دَنَتْ رِحْلَتُنا."[21]

فممّا سبق يمكن القول أنَّ المفهوم اللّغوي للرحلة يحيل في اللّغة العربية على معنى الانتقال والسّفر أو القصد أو الوجهة التي يراد السّفر إليها.

2.3 اصطلاحاً:

أدبُ الرّحلة فنٌ من الفنون الأدبية القديمة، التي ازدهرت وتطوّرت مع مرور الزّمن، فأدب الرّحلات هو "مجموعة الآثار الأدبية، تتناول انطباعات المؤلِف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، لتسجيل دقيق للمناظر الطّبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آنٍ واحد"[22] فحسب هذا المفهوم تتضمَّن الرّحلة السّرد وتقنية الوصف، حيث يستعملهما الرّحالة في سرد الأحداث التي يصادفها أثناء الانتقال من مكان لآخر، واصفاً للعادات والأخلاق والسلوك والمناظر الطّبيعية.

يقتضي التّأليف في هذا الفن الأدبي " ثقافة واسعة، ودقّة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعرِبة، ومشاركة عدد كبير من المعارف لاحتواء الرّحلة على معارف، وعلوم متعلّقة بالتّاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، والاجتماع، والأدب، وتفرض الأناقة في تخيّر المفردات، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول"[23] وهذه من الصّفات التي يجب على الرّحالة أن يتّصف بها، حتّى ترقى كتاباته في الرّحلة إلى المستوى الأدبي والفنّي.

يعدُّ النّص الرّحلي مصدراً هامّاً من مصادر التّأريخ، فالرحلات" على عكس جميع المصادر الأخرى تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث، ولا تعتمد على النّقل والسّماع فقط، ممّا يجعل منها وثيقة حيّة للوقائع التّاريخية"[24]

3.3 مفهوم الفضاء:

1.3.3 لغة:

ورد في لسان العرب في مادّة (فضا) " الفَضاءُ: المِكانُ الواسعُ مِنَ الأَرْضِ، والفِعلُ فَضا يَفْضُوا فَهُو فاضٍ، قالَ رُؤْبَةُ: أَفْرَحَ قَيْضُ بَيْضِها المُنْقاضِ عَنْكُمْ كِراماً بِالمقامِ الفاضِي وقَدْ فَضا المِكانَ وَأَفْضَى إذا اتَّسَعَ."[25]، فالفضاء في لسان العرب هو المكان والواسع من الأرض، والمعنى نفسه نجده في مختار الصّحاح "(الفَضاءُ) السَّاحةُ وما اتَّسَع منَ الأَرْضِ."[26]، وكذلك نجد في المعجم الوسيط" أنَّ الفضاء يحمل معنى المكان الواسع "(فَضَا) المكانُ_ فَضاءً، فُضُواً: اتَّسَعَ و_ خلا."[27]

وعليه يمكن القول أنَّ المعاني التي وردت في المعاجم العربية في مادّة (فَضَا)، تكاد تتّفق على أنَّ الفضاء هو المكان الواسع من الأرض، كما يحمل معنى الخلوّ.

2.3.3 اصطلاحاً:

انتقل مصطلح الفضاء إلى الدّراسات العربية عن طريق التّرجمة، حيث ترجم عن المقابل الأجنبي (Espace أو space)، غير أنَّ الدّراسات النّقدية العربية لا تتّفق حول مفهوم واحد للفضاء، ولا تستقرّ على مصطلح الفضاء فقط، بل نجد عدّة مصطلحات تقف في مواجهة هذا المصطلح، كالمكان، والحيّز...إلخ.

فالفضاء من المصطلحات النّقدية التي أثارت إشكاليات عديدة في الدّراسات النّقدية الحديثة، حيث" اختلف الدّارسون في معالجتهم للفضاء، اختلافهم في تحليل ودراسة الزّمان. وإذا كانت الدّراسات اللّسانية قد

حقّقت أرضية خصبة لتطوّر دراسة زمن الحكي، فإنَّ الفضاء ظلّ مجالاً مفتوحاً للاجتهاد وللتّصوّرات المتعدّدة التي لم تصل إلى حدّ بلورة نظرية عامّة للفضاء"[28]

يوظّف بعض النّقاد العرب مصطلح المكان ترجمةً عن المقابل الأجنبي espace، من بينهم غالب هلسا الذي ترجم كتاب غاستون باشلار la poétique de l'espace إلى جماليات المكان، وقد قسّم المكان إلى أنواع حسب الميول والرّغبات، حيث يقول:« المكان ينجذب إليه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز»[29] فالمكان في نظره يتجاوز الحّدود الهندسية والجغرافية، إلى الخيال.

أمّا حسن نجمي فيفضل مصطلح الفضاء، ويرى أن الفضاء لا ينقطع حتّى وإن كان العمل السردي بلا أمكنة، وهذا يتجلّى في قوله:« الفضاء موجود على امتداد الخط السردي، إنّه لا يغيب مطلقاً حتّى ولو كانت الرواية بلا أمكنة، الفضاء حاضر في اللّغة، والتّركيب، في حركية الشّخصيات في الإيقاع الجمالي لبنية النّص الرّوائي"[30]؛ أي أنَّ الفضاء عنده لا يقتصر على الأمكنة، بل حضور الفضاء في الرواية قد يكون من خلال اللّغة والتّركيب وحركية الشخصيات داخل الرواية، وكما يكون حاضراً في البنية الجمالية للنّص الرّوائي ككل.

هذا ونجده يدعّم رأيه هذا بنقده لغالب هلسا، حيث قال عنه أنّه ارتكب جريمة في حق الحقل النّقدي الأدبي العربي، تحت ضغط شغف غامض بأهمية المكان، إلى ترجمة كتاب غاستون باشلار «شعرية الفضاء» (المكتوب باللّغة الفِرنسية) عن اللّغة الإنجليزية بعنوان «جماليات المكان».[31]

ويقول عبد الملك مرتاض في معرض طرحه حول مصطلح الفضاء:« لقد خضنا في أمر هذا المفهوم، وأطلقنا عليه مصطلح «الحيّز» مقابلاً للمصطلحين الفِرنسي والإنجليزي (Espace, space) في كلّ كتاباتنا الأخيرة... ومصطلح الفضاء من منظورنا على الأقل قاصر بالقياس لأنَّ الفضاء من الضّرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء والفراغ، بينما الحيّز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء، الوزن الثّقيل، والحجم ... على حين أنَّ المكان نريد نُقفه في العمل الرّوائي على مفهوم الحيّز الجغرافي وحده.»[32] فعبد الملك مرتاض يفضل استعمال مصطلح الحيّز بدل الفضاء والمكان، وهو في ذلك استند على المعاني اللّغوية الدّقيقة لهذه الكلمات الثلاث، وهو لا يستعمل المكان إلّا للدّلالة على الحيز الجغرافي.

ما يمكن استنتاجه ممّا سبق ذكره أنَّ مصطلح الفضاء قد استقطب اهتمامات النّقاد والباحثين العرب، فكتبوا فيه كتابات كثيرة ومتعدّدة، محاولةً منهم إلى رد الاعتبار لهذا المصطلح، غير أنَّ جلّ هذه الكتابات كانت عبارة عن جهود متفرّقة لم ترقَ لمستوى الاتفاق، حيث سعى كل ناقد إلى أن يدلو بدلوه ممّا يراه مناسبا في التّعامل مع هذا المصطلح.

4 بنية الفضاء في رحلة "زيارة إلى خنقة سيدي ناجي" لأبي القاسم سعد الله:

1.4 مكان الانطلاق:

يمثّل هذا المكان في الرّحلة " نقطة البداية والرّجوع النّهائي وعتبة الانتقال إلى أمكنة أخرى، يجيئ مفتوحا ومترسباً في النّفس لأنّه لحظة ضيق في حياة الرّحالة، حينما يضطرّ للهجرة، أو البحث عن علوم أخرى"[33]

في رحلة أبي القاسم سعد الله إلى خنقة سيدي ناجي مثّلت بسكرة نقطة انطلاق له نحو خنقة سيدي ناجي التي تقع في نفس الولاية، وتبعد عن نقطة الانطلاق حوالي 95 كم، حيث يقول" ففي يوم 8 فبراير 1980 توجّهت بكرة(الساعة السادسة صباحا) رفقة الأستاذ علي باشا، وهو مدير لمتوسطة مختلطة في بسكرة والمنظم لهذه الزيارة، الأستاذ ميموني الغسيري والشيخ الأخضر الحنفي، إلى خنقة سيدي ناجي انطلاقا من بسكرة. وكانت المسافة بين النّقطتين حولي 95 كلم"[34]

2.4 المكان الجسر:

يمثّل المكان الجسر في الرّحلة "فضاء السير والعبور والمواجهة مع الآخر، لأنّه بداية السفر خارج مكان الألفة، بحيث يمثّل جسراً للعبور من نقطة الانتقال إلى نقطة الهدف، وخلاله يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، وإنّما للتّزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتّجارب، ممّا يجعل العبور أخصب مرحلة في الرّحلة، نظراً لتعد{د الأمكنة وتنوع التّجارب من جرّاء اللّقاءات والصّدامات والمفاجآت... وكلّما كانت نقط العبور كثيرة حققّت للنّص ثراء في الحكايات والصّور فيجيء الحديث عن وقائع العبور أغنى وأكبر حجماً من وقائع المكان_ الهدف"[35]

لقد أشار أبو القاسم سعد الله في رحلته هذه إلى ثلاثة فضاءات مكانية تمثّلت في: مدينة سيدي عقبة وزريبة الوادي، وقرية ليانة، لقد شكّلت هذه الأفضية الثلاث أولى بنيات الفضاء في هذه الرّحلة بعد مكان الانطلاق،" وفي الطّريق مررنا بإزاء مدينة سيدي عقبة وزريبة الوادي وبعض القرى الأخرى"[36]، فالرّحالة لم يهتم بوصف هذه الأفضية، بل اكتفى بذكرها فقط، وهذا ربما راجع لكونه يعلم هذه الأمكنة أو زارها من قبل، أو أنّها لم تكن ضمن الأهداف المسطّرة في هذه الرّحلة، كما أنَّ الوقت الذي خُصِّص لهذه الرّحلة ضيق، حيث قال" على أنَّ قصر زيارتي لم تسمح لي بالتّوسع في هذه المنطقة"[37] فمن هذا الكلام، نفهم لماذا لم يقف سعد الله على بعض الأمكنة بالوصف الدّقيق، والاكتفاء بذكر بعضها، أو وصفها وصفاً سريع.

1.2.4 جبل ششار:

غير بعيد عن قرية ليانة تقع أنظار الرّحالة على جبل ششار الذي شكّل اللّبنة من بين لبنات هذه الزّيارة، وقد أثار ذهول واستغراب الرّحالة أبي القاسم سعد الله، لشموخ هذا الجبل الذي كاد يسدّ الطريق في وجهه، إذ يقول" ولم يبقَ بيننا وبين ليانة سوى بضع كلم وحين اقتربنا من الخنقة كاد جبل ششار يسدّ الطّريق في وجوهنا حتّى لقد تساءلت أين المدينة وسط هذا المثلث الصّخري الهائل"[38]

يعتبر المكان مادّة أساسية يبني عليها الرّحالة عمله الرّحلي، إذ نجده يعمد إلى تقديم وصفا للأمكنة التي يصادفها أثناء رحلته، حتّى يتسنى للقارئ تخيّله كما أنّه يراه في الحقيقة، فالمكان "كالعاري فالوصف هو الذي يعطي للمكان نكهة تخصصه وتعطيه مكانة امتيازية من بين المكوّنات السّردية"[39]، فحضور المكان في النّص الرّحلي يستدعي الشّخصية الواصفة، والأسلوب الرّشيق للرّحالة.

2.2.4 وادي العرب:

بعد خروج سعد الله من دار الدريدي توقف عند وادي العرب الذي شكّل في هذه الرّحلة المكان الجسر، فقد وصفه سعد الله بقوله" عند خروجنا من دار السيد الدريدي توقفنا عند وادي العرب العظيم الذي تحوط به الدّور من جهة النّخيل وأشجار الفاكهة والخضر من جهة أخرى"[40]

3.4 المكان الهدف:

كلمة هدف تحيل إلى أنَّ هو المكان الذي يقصده الرّحالة، وهو " الذي يحدد نوعية الرّحلة ويشير إلى المكان الذي انطلقت نحوه منذ خروجها، سواء للهجرة، أو النّفي، أو التّجارة، أو الحج، أو الزّيارة، أو السّياحة، أو التّعليم، أو السّفارة ... إنّه الإطار العام الذي تتحقّق فيه الرّغبات، فيتمّ اللّجوء عن رغبة وشوق(الحج، الزّيارة، السّياسة)، أو بأمر (السفارة)، أو عن ضرورة وحاجة (التّجارة، العلم)، أو اضطرار (الهجرة، النّفي)، وبين الرّغائب أو نقائضها يرتبط المكان المته إليه بمسألة الانفصال " مكان الأنا"، والتّوجّه نحو " مكان الآخر"، ومع تشكّل رؤى وتحديدات لهذا المكان ذهنيا ووجدانيا."[41]

1.3.4 خنقة سيدي ناجي:

ففي رحلة أبي القاسم سعد الله هذه، شكّلت خنقة سيدي ناجي هدف هذه الرّحلة أو الوجه أو القصد الذي يسعى لزيارته، ففي ذلك قال " وكنت قرأت ما كتبة عنها عبد الله العياشي المغربي والحسين الورتلاني. وخليفة بن حسن القماري وغير. لذلك كنت أتحيّن الفرصة لزيارتها وربط حاضرها بماضيها. ولم أتمكن من ذلك إلّا خلال عطلة الشتاء"[42]، كان سعد الله في تلك الفترة يعمل على التّأريخ لثقافات الجزائر، إذ كتب عن الخنقة في فترة الحكم العثماني، وهو بهذه الزيارة يريد أن يربط ماضيها _أي الخنقة_ بحاضرها، لذلك سطّر هذه الزيارة، بعد أن تشوّق لما كان قد كتب عنها غير.

وقال عنها سعد الله أنّه نظر إلى الخنقة نظرة طائر هنا وهناك، أي كأنّه نظر إليها من السماء، أو من مكان عالٍ حتّى يتسنّى له الاطّلاع على الخنقة جغرافيا، حيث قال" ونظرت نظرة طائر هنا وهناك فإذا الخنقة خلافا لمدن وقرى القطر الأخرى، لا تنمو كثيرا. فالمباني الجديدة قليلة وتوسّعها جغرافياً محدود. وقد قيل لي أنّها أوشكت على الخراب سنوات الثّورة إذ لم يبقَ فيها إلّا عدد قليل من السكان حين اتّخذها الفِرنسيون نقطة ارتكاز لموقعها الجغرافي، ثم أنَّ كثيرا من أهلها_ وخصوصاً العائلات الموسرة والشبيبة_ لم يعودوا إليها بعد الثّورة وانتشروا في المدن الأخرى مثل الجزائر وقسنطينة وبسكرة وخنشلة."[43]، فالخنقة هي الهدف الذي قصده سعد الله في رحلته

هذه، كما أنَّ كلَّ مكان فيها كان بالنّسبة له هدفا خاصةَ الأمكنة المقدسة كالمساجد والزوايا وحتى الدور التي يسكنها شيوخ المنطقة، لأنّه سعد الله مهتما بكلّ ما هو تاريخي، وثقافي.

2.3.4 دار السيد الدريدي:

يروي الرّحالة أبو القاسم سعد الله أنَّ السيد الدريدي استضافهم بداره على العسل والجوز _وهذا دليل على جود وكرم أهل الخنقة_ وقد شكّلت دار الدريدي فضاءً علميا بامتياز، إذ قدّم الدريدي للرّحالة بعض الكتب، قال سعد الله " وأحضر لنا بعض الكتب، منها (منار الأشراف) لعاشور الحنفي، وهو مطبوع، وتقرير مطبوع بالعربية للسيد جونار، الوالي العام على الجزائر في وقته (حوالي سنة 1918)[44]، وقد وقف الرّحالة قليلا لوصف السيد الدريري فقال عنه " هو ابن شهيد ومن حفظة القرآن الكريم"[45]

3.3.4 دار الشيخ زروق بلمكي:

لقد شكّلت كذلك دار الشيخ زروق بلمكي فضاءً علميا هاماً في رحلة أبي القاسم سعد الله إلى خنقة سيدي ناجي، فرغم أنَّ سعد الله لم يدخل هذه الدّار بل اكتفى بالحديث مع الشيخ زروق بلمكي أمام الباب، إلّا أنَّ هذه المحطّة من رحلته شكّلت له فضاءً علميا هامًا، حيث أعطاه السيد بلمكي ملفّا فيه بعض الآثار المخطوطة، وفي ذلك قال الرّحالة سعد الله " كما أخرج لي ملفاً فيه بعض الآثار المخطوطة. منها قصيدة لوالده في شؤون الدّين لم أسجّل عنوانها. وقد وعدني بنسخ نسخة منها"[46]

4.3.4 الزّاوية الناصرية:

لقد عرّج الرحالة أبو القاسم سعد الله على الزّاوي النّاصرية ذاكراً فضلها العميم، في نشر العلم والمعرفة في تلك المنطقة، فقال عنها" كانت الزّاوية النّاصرية، بجامعها الكبير، هي التي اشعّت على النّاحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد. وكانت موئل علماء الزاب والصحراء والأوراس وقسنطينة وزواوة بل تونس وطرابلس أيضاً. وكانت المدرسة التي ما تزال قائمة، تحتوي على خمس عشرة غرفة، وتضم كل غرفة من خمسة إلى عشرة طلاب.[47]

5.3.4 الجامع الكبير:

تعرّف سعد الله على بعض المراكز الدّينية والعلمية من أهل قرية سيدي ناجي، من بينها " الجامع الكبير المعروف أيضا بجامع سيدي مبارك "[48] لقد وصف الرّحالة هذا المسجد وذكر بعض تفاصيله وخصائصه المميّزة، حيث قال" والجامع واسع يحتوي على ست وعشرين عرصة وله صحن غير مغطّى ملحق به. لهذا الصحن محراب أيضاً. وللجامع صومعة عالية مازالت جيّدة الصّنع. وقد بلغت درجاتها 62 درجة على الأقل. وكانت هذه الصومعة فيما مضى لإسماع الآذان وللمراقبة أيضاً عند الأخطار. فهي تشرف على الوادي والمدخل والطرقات."[49]

6.3.4 زاوية الشيخ عبد الحفيظ:

لقد خصَّ الرّحالةُ سعد الله زاوية الشيخ عبد الحفيظ بوصف ذا حيز معتبر من النَّ الرحلي، إذ قال" أمّا زاوية الشيخ عبد الحفيظ فليس هناك تاريخ مضبوط لتأسيسها، وتوجد لوحة خشبية عند ضريح الشيخ عليها كتابات بالسمق في اتجاهات مختلفة. ويبدو أنّ الزّوار كانوا يسجّلون تاريخاً أو حكمة أو بيتا من الشّعر أو دعاء في هذه اللّوحة حتّى أساؤووا إلى السّطور الأصلية التي يبدو أنَّ محمود (دفين تونس) ابن الشيخ عبد الحفيظ قد أَرَّخَ فيها لوفاة والده. ولم نستطع رغم المحاولات مني ومن زملائي، على ضوء الشّمع والكبريت، قراءة تاريخ وفاة الشّيخ الذي يظهر أنّه أواسط ربيع الأوّل سنة 1267. وضريح الشيخ عيد الحفيظ معتم ورطب وفيه خرق كبير الألوان وعليه سبحة ضخمة ذات حبات بُنِيَّة اللّون الواحدة منها في حجم حبّة الكرز. وقد قيل لي أنّه كان بها ألف حبّة، غير أنَّ الزوار أخذوا منها للتّبرك منها فتناقصت."[50]

لقد وصف سعد الله هذه الزاوية وصفا دقيقاً، يجد القارئ فيه لذة ومتعة أثناء قراءة رحلة "زيارة إلى خنقة سيدي ناجي"، كما أنّه يكتسب معلومات عن هذا المكان الموصوف تعود إلى عصر الدّولة العثمانية.

7.3.4 مسجد زريبة الوادي:

يمثّل هذا المسجد في رحلة أبي القاسم سعد الله إلى خنقة سيدي ناجي الفضاء أو المكان الذي تنغلق فيه هذه الرّحلة، إذ تعد مدينة زريبة الوادي أو فضاء بعد فضاء أو مكان الانطلاق، فكان المسجد آخر الأفضية التي شكّلت هذه الرّحلة، وفيها قال سعد الله "عند مرورنا بزريبة الويدي حان وقت صلاة الجمعة فأديناها في

مسجدها الذي لا يكاد يُرى حتّى اضطررنا للسؤال عنه عدّة مرّات؛ لأنّه لا صومعة له، وهو جامع واسع ضخم ومبنى بالجبس وكان غاصاً بالمصلين، خلافا للخنقة وجدنا الزريبة، مثل القرى الجزائرية اليوم، وتتجدد وتتوسّع وفيها القديم والجديد.[51]

5 خاتمة:

توصّل البحث إلى جملة من النّتائج نلخّصها على النّحو التّالي:

- أدب الرّحلة فن من الفنون القديمة التي يسجّل فيها الرّحالة كل ما يصادفه من عادات وتقاليد ووصف للأفضية والأماكن الجغرافية.
- يقتضي التّأليف في هذا الفن الأدبي ثقافة واسعة، ودقّة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعرِبة، ومشاركة عدد كبير من المعارف لاحتواء الرّحلة على معارف.
- الرّحلة أفضل وأهم مصادر التّأريخ، لأنها تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث.
- اشتغل الدّراسون العرب على مصطلح الفضاء وأولوه اهتماما كبيرا في كتاباتهم، غير أنّهم لم يتّفقوا على مصطلح واحد، فكانت مصطلحات أخرى في مواجهة مصطلح الفضاء مثل مصطلح المكان والحيز.
- شكّل الفضاء في رحلة أبي القاسم سعد الله إلى خنقة سيدي ناجي بنية هذه الرّحلة التي دارت في رحابه الأحداث وتلاقت فيه الشّخصيات.
- الفضاء المقدس، والمتمثّل في المسجد والزوايا شكّلت الحلقة الكبيرة لهذه الرّحلة، وذلك لأنَّ هذه المنطقة اشتهرت وعرفت على أنّها كانت ولازالت منارة للعلم والمعرفة في تلك المنطقة.

6 قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ج3، ط.4، 1992م.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.
3. أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار شهادات ومواقف، دار النعمان للطّباعة والنّشر، برج الكيفان_ الجزائر، د.ط، د.ت.
4. جبور عبد النّور، المعجم الأدبي، العلم للملايين، بيروت_ لبنان، ط1، 1979م.
5. حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي(المتخيّل والهوية في الرّواية العربية)، المركز الثّقافي العربي، بيروت_ لبنان، ط1، 2000م.
6. سعيد يقطين، قال الراوي_(البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء_ المغرب، ط1، 1997م.
7. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التّجنيس. آليات الكتابة. خطاب المتخيل)، شركة الأمل للطّباعة والنّشر، القاهرة_ مصر، د ط، 2002م.
8. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرّواية بحث في تقنيات السّرد، دار المعرفة، الكويت، د.ط، 1998م.
9. غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط2، د.ت.
10. مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسسة الرّسالة، مؤسسة الرّسالة، لبنان، ط8، 2005م.
11. مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، ط2، 1984م.
12. مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، ط4، 1425هـ_ 2004م.
13. مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، ط4، 1425هـ_ 2004م.
14. محمد التوزاني، الرّحلة الحجازية، دار النّشر المغربية، الدار البيضاء_ المغرب، د. ط، 1998م.
15. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، 1986م.
16. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، 1986م.
17. ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، القاهرة_ مصر، د.ط، د.ت.

18.ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، القاهرة_ مصر، د.ط، د.ت.

1.6 مواقع الانترنيت

https://ar.wikipedia.org/wiki/أبو_القاسم_سعد_الله

7 الهوامش:

[1] أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار شهادات ومواقف، دار النعمان للطّباعة والنّشر، برج الكيفان_ الجزائر، د.ط، 2017م، ص91.

[2] المرجع نفسه، ص113.

[3] المرجع نفسه، ص91.

[4] المرجع نفسه، ص91.

[5] المرجع نفسه، ص92.

[6] أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار شهادات ومواقف، المرجع نفسه، ص93.

[7] يُنظر: المرجع نفسه، ص93.

[8] يُنظر: المرجع نفسه، ص99-103.

[9] يُنظر: المرجع نفسه، ص107.

[10] يُنظر: المرجع نفسه، ص119-120.

[11] يُنظر: المرجع نفسه، ص113.

[12] يُنظر: المرجع نفسه، ص128.

[13] https://ar.wikipedia.org/wiki/أبو_القاسم_سعد_الله

[14] أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت_ لبنان، ج3، ط. 4، 1992م، ص302.

[15] المرجع السابق.

[16] https://ar.wikipedia.org/wiki/أبو_القاسم_سعد_الله

[17] المرجع نفسه.

[18] ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، القاهرة_ مصر، د.ط، د.ت، ص1609.

[19] مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، ط4، 1425هـ_ 2004م، ص361.

[20] مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسسة الرّسالة، مؤسسة الرّسالة، لبنان، ط8، 2005م، ص1005.

[21] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، 1986م، ص100.

[22] مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللّغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، ط2، 1984م، ص17.

[23] جبور عبد النّور، المعجم الأدبي، العلم للملايين، بيروت_ لبنان، ط1، 1979م، ص122.

[24] محمد التوزاني، الرّحلة الحجازية، دار النّشر المغربية، الدار البيضاء_ المغرب، د. ط، 1998م، ص4.

[25] ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله على الكبير وآخرون، مج3، ج18، دار المعارف، القاهرة_ مصر، د.ط، د.ت، ص3430.

[26] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصّحاح، مكتبة لبنان، بيروت_ لبنان، 1986م، ص212.

[27] مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّولية، مصر، ط4، 1425هـ_ 2004م، ص693.

[28] سعيد يقطين، قال الراوي_(البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء_ المغرب، ط1، 1997م، ص237.

[29] غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، ط2، ص 31.

[30] حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي(المتخيّل والهوية في الرّواية العربية)، المركز الثّقافي العربي، بيروت_ لبنان، ط1، 2000م، ص65.

[31] يُنظر: المرجع نفسه، ص42.

[32] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرّواية بحث في تقنيات السّرد، دار المعرفة، الكويت، د.ط، 1998م، ص121.

[33] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التّجنيس. آليات الكتابة. خطاب المتخيل)، شركة الأمل للطّباعة والنّشر، القاهرة_ مصر، د ط، 2002م، ص319.

[34] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص257.

[35] شعيب حليفي، المرجع السابق، ص321.

[36] أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص257.

[37] ، ص259.

[38] ، ص257.

[39] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص187.

[40] أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص259.

[41] شعيب حليفي، المرجع السابق، ص323- 324.

[42] أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص257.

[43] نفسه، ص259.

[44] نفسه، ص258.

[45] نفسه، ص258.

[46] نفسه، ص259.

[47] نفسه، ص 260- 261.

[48] نفسه، ص260.

[49] نفسه، ص262.

[50] نفسه، ص0262- 263.

[51] نفسه، ص264.